



المقصد التّداولي لتوظيف الحديث النبوي في الخطاب الصوفي -ابن عربي نموذجًا-

The Deliberative Propose Of Employing Hadith In Sufi Discours -Ibn Arabi As An Exempl-

زردان زهرة*

مخبر أطلّس الثقافة الشعبية الجزائرية، جامعة الجزائر 2 بوزريعة، جامعة أمحمد
بوقرة -بودواو- بومرداس -الجزائر

z.zerdane@univ-boumerdes.dz

ميلود شنوفي

جامعة أمحمد بوقرة -بودواو- بومرداس -الجزائر

m.chenoufi@univ-boumerdes.dz

تاريخ النشر:

2025-06-03

تاريخ القبول:

2025-05-22

تاريخ الإرسال:

2025-02-27

ملخص: إنّ حضور النصّ الديني في خطاب ابن عربي شاهد حيّ على عمق صلة المتصوّف بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وتأثره بهما؛ إذ يعتبر التّصوف نتيجة عمل العبد بأحكام الشريعة. تسلّط هذه الدراسة الضوء على كيفية تعامل ابن عربي مع الحديث النبوي كونه أهم رافد للصّوفية بعد القرآن الكريم، بما يحمله هذا النصّ من قداسة، وكيف جعل توظيف الحديث النبوي حجة تداولية للوصول إلى مقصد تداولي عام؛ يتمثل في علاقة التّصوف بالحديث النبوي، ليؤكد أنّ المنهل الأول للصّوفية هو القرآن والسنة، ويفند من يقول إنّ التّصوف منعزل عن القرآن والسنة؛ حيث يستدعي الأحاديث التي تخدم هذا المقصد ويقرأها بطريقة صوفية، وذلك بالنظر إلى باطن الحديث لا ظاهره. سنقدم في هذا المقال إلى حصر بعض هذه الأحاديث التي اختارها ابن عربي، ووظفها لخدمة مقصده، وكيف تعامل معها وهو ينقلها.

* المؤلف المرسل

كلمات مفتاحية: الحديث النبوي؛ الخطاب؛ الصوفي؛ التداولية؛ المقصد؛ ابن عربي

Abstract: The présence of the religioustext in IbnArabi'sdiscours is living of the depth of the Sufi's connection to the holy Qur'an and Noble Prophetic hadithand his influence by sciensm of the essence oftheservant'swork ,who respects and consiclrs the reules of sharia.

This study shelds light on how IbnArabi dealt with the prophetic hadithe as the most important tributary to sufism after the holy Qur'an ,given the sanctity that this text carries ,and how IbnArabi made the use of the prophetic hadithe a communicative goal represented in the relationship between sufism and the prophetic hadith.

In addition,to let it be caught on, the first source of sufism is the Islamic religion , and He who says that sufismis separate from blood is refuted ,as he calls upon the hadiths that serve this point and its proximity in asufi manner i-e by looking at the inner meaning of We will carry out à red proces for these hadiths that IbnArabi employed and chose to serve his purpose ,and how he dealt with them while transmitting them ?

Keywords: Hadith; Sufi Discourse; Ibnarabi; Pragmatics; The Purpose.

1- تعد السنة النبوية المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم، لذلك نالت عناية كبيرة من طرف أشهر رجال الصوفية، الذين وظفوا أحاديث النبي محمد صلى الله عليه وسلم في خطاباتهم، فرسموا له صورة نورانية عرفانية؛ حيث يظهر النبي من خلال أعمالهم نموذجًا للإنسان الكامل ومعلمًا للرحمة الإلهية، ونورًا لجميع الموجودات، لهذا نجدهم يعتقدون أنهم يواصلون عمل الرسول الذي يتدينون بدينه، فهم أصحاب الكرامات وورثته، فما كان معجزة لنبي، يصلح أن يكون كرامة لولي.

ونذكر من رجال الصوفية الذين يعتبرون أنفسهم ورثة النبي صلى الله عليه وسلم-المارد الصوفي "ابن عربي" الطائي، وقد أكد هذا في جلّ كتاباته، فقد جعل من الأحاديث النبوية الشريفة حجة تداولية لتأكيد مقصده، سواء المقصد العام المتمثل في علاقة التصوف بالقرآن والسنة-الأمر الذي سنركز عليه في ورقتنا البحثية- أو المقاصد

الخاصة بـ"ابن عربي" وهي: (مقصد الولاية) ووراثته للولاية من النبي -صلى الله عليه وسلم- وهذا ما نجده في كتبه؛ "فصوص الحكم" و"مقصد الوصايا" وغيرهما.

من هذا المنطلق نتبلور إشكالية المقال كالتالي: ما المقصد التداولي لتوظيف الصوفية للحديث النبوي الشريف في خطابهم؟ وما مقصد ابن عربي تحديدًا في توظيف الحديث النبوي الشريف في أعماله؟ وكيف تعامل مع الأحاديث النبوية وهو ينقلها؟

نفترض كإجابة مبدئية أنّ مقصد الصوفيين من توظيف الحديث النبوي في خطابهم هو الدفاع عن شرعية مذهبهم بتغيير الفكرة الراسخة في الأذهان أنّ التصوف يباين الدين، ويخالف الإسلام، وبالتالي الردّ على أصحاب الظاهر من الفقهاء الذين تحاملوا على التصوّف، باتباع أساليبهم مدّعين أقوالهم بآيات قرآنية، وأحاديث نبوية.

استندنا في هذا البحث على أعمال بعض الدارسين للخطاب الصوفي الذين طبّقوا نظريات المناهج النقدية على نصوص المتصوفة بغية الكشف عن مواضع القصد من كلامهم حتى يتم لهم التوفيق بين ما يصدر عنهم من ملفوظ، وما يتلقاه المتلقي من معاني توافق ثقافته وعقيدته، فتمت الاستعانة بكتاب آمنة بلعلى "تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية"، الذي عالج قضية التصوّف بالنقد والتحليل الدقيق، وتأطير النصّ الصوفي، مجيبة عن أهم القضايا، كما اعتمدت على كتاب "الرسالة القشيرية" للإمام القشيري الذي لم يغفل جانب التصوّف وعلاقته بالدين الإسلامي، وارتكز البحث على مدونتين للإمام الصوفي "محي الدين بن عربي" "تمنّلت في الفتوحات المكية"، و"فصوص الحكم".

تكمن أهمية هذا البحث في الكشف عن علاقة التصوّف بالسنة النبوية من المنظور الصوفي، وكيف جعلوا منها حجة تداولية للتأكيد على قداسة مذهبهم، وأنه لا يخرج عن إطار القرآن والسنة.

يهدف هذا البحث إلى:

- رصد كيفية تعامل الصوفية مع الحديث النبوي الشريف.
 - الكشف عن مقاصد الصوفية في توظيفهم السّنة النبوية الشريفة في خطابهم.
 - دراسة شكل من أشكال توظيف ابن عربي للحديث النبوي.
- وقد قسّمنا بحثنا على النحوي الآتي:
- مقدمة وفيها تمهيد للبحث، طرحنا فيها الإشكالية الرئيسة ثم أهداف البحث وأهميته.
- العنصر الأول: كان نظرياً، تطرقنا فيه إلى مفهوم مصطلح "المقصد"، بينما خصصنا العنصر الثاني لمقصد الصوفيين في توظيفهم للحديث النبوي الشريف في خطابهم حيث ذكرنا نماذج من هذه الأعمال كالرسالة القشيرية للإمام القشيري...
- وخصصنا العنصر الثالث لمقصد ابن عربي في توظيف الحديث النبوي الشريف في كتبه (فصوص الحكم، الفتوحات المكية).
- في الأخير ختمنا الدراسة بمجموعة من النتائج المتوصل إليها، وبعض التوصيات.
- وقبل الغوص في ثنايا هذا البحث، كان لزاماً علينا توضيح أهم المفاهيم التي تعدّ مدخلا رئيسياً له.

2. تداولية القصد في البحث اللساني:

- 1.2 مفهوم القصدية:** تعتبر القصدية المعيار المهيمن في المجال التداولي؛ إذ تميّز الفكر اللغوي البشريّ بميزة تداولية تربط الخطاب بمرسله، ومتلقيه، والسياق، يقول طه عبد الرحمان: "القصد من القول يستلزم صبغة سياقية ومقامية"¹، فيسعى المتكلم إلى اختيار الاستراتيجيات المناسبة لنقل مراده والتأثير في المتلقي، هذا المتلقي بدوره يسعى لاكتشاف مقصد المؤلف، الأمر الذي يؤكد الدور البارز للقصدية في العملية التواصلية؛ إذ لا يمكن لأحد أن يفهم كلام مخاطبه إلا إذا توفّر كلامه على قصد.
- يربط كثير من الباحثين مصطلحي القصد والمعنى في نطاق الاستعمال؛ أي أنّ القصد مرادف لمصطلح المعنى" في أغلب الألسنة الطبيعية، فالمعنى الذي نبحث

عنه في الخطاب وترسباته ليس سوى القصد، والغرض الذي من أجله كانت اللغات وكان التواصل²، كما يشير علماء العربية القدامى إلى أن المعاني هي المقاصد، هذا ما يوضحه الإمام الشاطبي في قوله: "أن يكون الاعتناء بالمعاني المبنوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم، بناء على أن العرب إنما كانت عنايتها بالمعاني، وإنما أصلحت الألفاظ من أجلها وهذا الأصل معلوم عند أهل العربية، فاللفظ إنما هو وسيلة لتحصيل المعنى المراد والمعنى هو المقصود"³.

ويربط الجاحظ القصدية بالبيان وجلاء المعنى؛ حيث إن "البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصولة كائنا ما كان ذلك البيان"⁴، وهناك من علماء العرب من يربط معنى القصد بتعليم السامع شيئاً لا يعلمه؛ إذ يرى أن القصد أساس التخاطب، ومراعاة المقام أساس التواصل. وفي هذا يقول الجرجاني: "ومعنى القصد إلى معاني الكلم أن تعلم السامع بها شيئاً لا يعلمه"⁵، وللصوفية مقصد في توظيف الحديث النبوي في خطابهم، سنتعرف عليه في هذه الورقة البحثية.

3. المقصد التداولي العام لتوظيف الصوفية الحديث النبوي في خطابهم: وظف الصوفيون الأحاديث النبوية التي تخدم الأفكار العامة للتصوف كمفهوم الطهارة عند المتصوف، وهم بهذا يحاولون التأكيد على أنهم يشتغلون في إطار القرآن والسنة، وأن علاقة التصوف بالإسلام وطيدة.

واستراتيجيتهم في توظيف الحديث مبنية على الاختيار؛ إذ ينتقون الأحاديث التي تخدم مقصدهم، لكن هدفهم هو إعادة قراءة الحديث بطريقة مختلفة، وهي الطريقة الصوفية؛ أي لا ينظرون إلى ظاهر الحديث بل إلى باطنه وذلك وفق العملية التأويلية لهذه الأحاديث، وبالتالي هناك مقصد تداولي عام وهو أن الصوفية لا تخرج عن الكتاب

والسنة، وهناك مقصد خاص داخل هذا المقصد وهو المضمّر المتمثل في تأويل الحديث استناداً إلى فهمهم له.

1.3 علاقة التصوف بالقرآن والسنة: حاول الصوفيون الدفاع عن شرعية مذهبهم بتغيير الفكرة الراسخة في الأذهان وهي أنّ التصوف يباين التدين أو يخالف الإسلام، "فكل تيار فكري بارز في مجرى التاريخ الإسلامي، زاول الاتجاه إلى تصحيح نفسه على النص المقدس، وإلى اتخاذ هذا النص سنداً على موافقته للإسلام، ومطابقته لما جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبهذا وحده كان يستطيع أن يدّعي لنفسه مقاما وسط هذا النظام الديني، وأن يحتفظ بهذا المقام"⁶، ومن أمّهات الكتب التي صحت مفهوم النصّوف وربطته بأصوله الإسلامية كتاب "الرسالة القشيرية" للإمام أبي القاسم عبد الكريم القشيري؛ إذ أكد أنّ النصّوف هو الإيمان في صفائه والإسلام في أخلاقه وسماحته، وهو التدين في أسمى مستوياته، كما ذكر في مقدمة كتابه "خصائص التصوف ومناخه العقائدي".

اهتم الصوفيون بجمع الأحاديث النبوية وتدوينها مع الاستشهاد بها، ثم جعلها حجة من أجل تصحيح الصورة السلبية عن الصوفية التي تحصرهم، وتختصر مشاربهم في فكرة "حدثني قلبي"، فحضور الأحاديث النبوية في الخطاب الصوفي أمر أساسي وضروري للتأكيد على فكرة مصدرية التصوف الذي هو القرآن والسنة؛ حيث "يدّعي كبار الصوفية القدماء أنّ تصوفهم مقيّد بالكتاب والسنة، فهم يحاربون كلّ ما خالفهما، قال الإمام ابن الجوزي، بإسناد عن جعفر الخدي: سمعت الجنيد يقول: قال أبو سليمان الدارتي: ربما تقع في نفسي من نكت القوم أياماً فلا أقبل منها إلّا بشاهدين عادلين الكتاب والسنة"⁷، كما يرى القشيري بدوره أنّ المتصوّفة هم خلاصة أهل السنة، وعنهم يقول: "اعلموا رحمكم الله أنّ شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد صانوا بها عقائدهم عن البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة."⁸

خصّص القشيري في رسالته أبوابا تحدث فيها عن مفاهيم التصوف التي تحمل دلالات إسلامية يفصلها ويفسرها، فعرف النَّصُوف بأنه الإيمان في صفائه والإسلام في أخلاقه، وهو التدين في أسمى مستوياته، ومهد لرسالته بمقدمة عرض فيها خصائص النَّصُوف، ومناخه العقائدي وتيّاره التاريخي، فخصص مباحث تحدث فيها عن أخلاق إسلامية كالخشوع والصبر والورع... على الطريقة الصوفية مدعمة بآيات من كتاب الله وأحاديث من هدي الرسول(ص)، واختار منها ما يخدم مقصده فيذكر الحديث بإسناد أو مرسلا.

وهناك أحاديث عدّة استطاع الصوفية أن يفسروا رياضتهم ومجاهداتهم ومقاماتهم وأحوالهم في ضوءها، ومن أقوى الأحاديث التي تركز عليها الممارسة الصوفية قوله(صلى الله عليه وسلم) في الحديث القدسي: "وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ ممّا افترضته عليه، ولا زال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألتني لأعيزنه..."⁹ وهم بهذا أرادوا أن يوضحوا للخصوم والأصدقاء على حدّ سواء أنّ حركتهم شرعية، وأنها تستند إلى الفهم الصحيح للقرآن والسنة.

وبذلك تكون الصوفية قد أسست لاتجاهاتها المختلفة من خلال قاعدة دينية عمادها آيات القرآن الكريم التي تتوافق مع مبادئها في الحياة الدنيا، وأهدافها المسطرة للفوز في الدنيا والآخرة "إنّ الصوفية لهم طريق روعي يسرون عليه، وهذا الطريق يعتمد أساساً ومنهجاً وغاية على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وهذا الطريق قد جرّبه الصوفية، فثبتت ثماره عن طريق التجربة أيضا"¹⁰.

كما نجد في "الواقع أنّ المثل الأعلى للصوفية على بكرة أبيهم إنّما هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهم يحاولون باستمرار أن ينهجوا نهجه، وأن يسيروا على منواله، فهو إمامهم الأسمى في كلّ ما يأتون، وما يدعون وهم يتابعونه مهتدين في ذلك

بقوله تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)¹¹، فهو قدوة ومثل أعلى لهم في أمور الدين والدنيا؛ حيث كانت حياته صلى الله عليه وسلم -بعد البعثة أسوة لهم؛ إذ روي أنه كان يقوم الليل حتى تورمت قدماه: "حدثنا أبو نعيم قال: حدثنا مسعر عن زياد قال: سمعت المغيرة رضي الله عنه يقول: إن كان النبي صلى الله عليه وسلم ليقوم -أو ليصلي- حتى تورمت قدماه -أو ساقاه- فيقال له: فيقول: أفلا أكون عبدا شكورا"¹²، وقد كانت مثل هذه الأحوال النبوية نبراساً للصوفية في مجاهداتهم الروحية.

4. مصدر تلقي الحديث عند الصوفية: إنّ مصدر التلقي عند الصوفية هو المنامات، والكشف، والعلم اللدني، والتلقي من النبي صلى الله عليه وسلم -وأقوال وأفعال كبار المشايخ، "وأما استمداده فهو مستمد من الكتاب والسنة، وهامات الصالحين وفتوحات العارفين"¹³، ويتفق الصوفيون على أنهم لم يأخذوا الحديث من الكتب والمحدثين، إنّما أخذوه من مشايخ التصوف، وأنّ اتباع السنة "لا تغني فيه الكتب، وإنّما يلزم الإرشاد من شيخ بصير بالنفوس خبير بدسائسها، صاحب فراسة إيمانية تدرك ما يصلح كلّ سالك على حدة وما يضرّه، كما اتضح من صنيع الرسول صلى الله عليه وسلم -مع أصحابه"¹⁴.

ليست السنة عند الصوفي في الأحاديث الصحاح المأخوذة من صحاح الكتب، إنّما السير على سنته النبي محمد؛ أي ليس ما نقل عنه من أقوال، بل ما ثبت عنه من أفعال، واتباع منهجه العرفاني مع اقتفاء أثره، بالتالي فلا قيمة لصحيح البخاري ومسلم عنده؛ لأنّه حسب ادعائه أنّ المصدر الصحيح للوصول إلى ما قرره الرسول صلى الله عليه وسلم -دونما خطأ أو التباس هو إخضاع الحديث لما يسمى بالكشف، هذا ما يجعلهم ينكرون بعض الأحاديث الثابتة في دواوين السنّة، وحجتهم في ذلك قولهم إنّهم يرون الرسول صلى الله عليه وسلم -ويتلقون منه ما يعينهم على تأويل الأحاديث مع تمييز الصحيح منها من الضعيف، وفي هذا يقول ابن عربي: "فإنّهم قد يرونه صلى

الله عليه وسلم- في كشفهم، فيصحّ لهم الأخبار ما ضعف عندهم بالنقل، كما ذكر مسلم في صدر كتابه عن شخص أنّه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم- في المنام، فعرض عليه ألف حديث كانت في حفظه، فأثبت له صلى الله عليه وسلم من الألف ستة وأنكر صلى الله عليه وسلم ما بقي¹⁵.

يتبيّن أنّ مصدر الحديث عند الصوفية هو "الكشف" من النبي صلى الله عليه وسلم- ويقصدون به أخذ الأحكام الشرعية منه سواء يقظة أم مناماً؛ حيث يزعمون أنّهم يتلقون الأحكام الشرعية من النبي مباشرة عن طريق المنامات مثلما حدث لابن عربي، الذي يدّعي أنّه أخذ كتابه "فصوص الحكم" من يدّ الرسول الكريم؛ إذ يقول: "رأيت رسول الله في مبشرة... ويده صلى الله عليه وسلم- كتاب فقال لي: هذا كتاب فصوص الحكم خذه أخرج به للناس ينتفعون به، فقلت السمع والطاعة لرسول الله، فحققت الأمنية".¹⁶ يستند أغلب الصوفية على الكشف وهذا ما يجعلهم ينكرون بعض الأحاديث الثابتة في كتب السنة، ويؤولون بعضها الآخر وفقاً لمقاصدهم، وربما هذا ما يجعلهم موضع نقد من طرف كثير من العلماء والفقهاء.

وليست دعوة الالتزام بالسنة مقتصرة على فئة بعينها من رجال الصوفية، بل نجدها عند كلّ المشايخ ابتداءً بالكرخي، وابن أدهم، والجنيد مروراً بالحلاج وابن عربي. **5. مقصد ابن عربي في توظيف الحديث النبوي:** تأثر "ابن عربي" بمن سبقه من المتصوفة خاصة "الحلاج" في قوله بقدوم النور المحمدي، كما أنّه استند في بناء فكره على ما سبقه من فلسفات يونانية، وهندية ومصرية، وعقائد يهودية ونصرانية. وأيضاً لعقائد الشيعة الباطنية وتأويلاتهم لنصوص الشرع نصيب كبير في فكر ابن عربي، إلّا أنّه حاول أن يحيط مذهبه بروح إسلامية باحثاً عن أسس يعتمد عليها في تأويله لنصوص القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

شكلت الأحاديث النبوية المدرسة الروحية عند "ابن عربي"؛ إذ خصّص لها حيّزا كبيرا في كتبه مؤولا لها، أو مفسرا، أو مستطردا.

وظّف "ابن عربي" الحديث النبوي لعدّة مقاصد، من بين هذه المقاصد أنّ السّنة النبويّة مصدر أقواله وأفعاله، وهذا ليضفي عليها لمسة من القداسة، من أجل أن ترشّح للقبول من طرف المتلقّي، كي لا يترك مجالا للرّفص والتشكيك في هذه الأفعال والأقوال، فهو يحكم التواصل مع المتلقّي وفق منحى تداولي؛ إذ يحاول أن يستثير القارئ ويؤثّر فيه؛ فيهيئ له الجوّ العام ليستقبل كتابه، فيحيط نصّه الأساس ببنية نصيّة مستقلة، للتأكيد على مقصده العام، وهو علاقة التّصوف بالدين الإسلاميّ، وهذا ما تسميه أمانة بلعلّى "بالبرازخ النّصية"، وهذا "يجرّ القارئ برفق إليه ويحيله إذا أراد الاطلاع عليه أن يقرأ أحد كتبه في الموضوع، وهذه البرازخ النّصية كما يلاحظ قد تنزّل الصعوبة الأساسيّة التي تعترض القارئ"¹⁷.

الملاحظ في تقديم "ابن عربي" لكتابه "الفتوحات المكية" أنه يشهد الله وملائكته على إيمانه بالرسول وما جاء به؛ حيث يقول: "وكذلك أشهده سبحانه وتعالى وملائكته وجميع خلقه وإياكم على نفسي بالإيمان بمن اصطفاه واختاره واجتبه من وجوده ذلك سيدنا محمد-صلى الله عليه وسلم- الذي أرسله إلى جميع الناس كافة... وإني مؤمن بكلّ ما جاء به - صلى الله عليه وسلم- ممّا علمت وما لم أعلم"¹⁸، مقتفيا بذلك سنة الرسول-ص- بعد أن أشهد الله والناس على تأديته للأمانة في خطبة الوداع.

كما نجد حسب قول "ابن عربي" أنّ الرسول بعد أن أتمّ خطبة الوداع أشهد الله على أنّه أدّى الأمانة، فيقول: "وقف في حجة وداعه على كلّ من حضر من أتباعه فخطب وذكر، وخوف، وبشر وأنذر، ووعد وأوعد وأمطر وأرعد... ثم قال: (ألا هل بلغت؟) فقالوا: بلغت يا رسول الله، فقال: (اللهم اشهد)"¹⁹؛ إذ حاول "ابن عربي" أن يقتدي بالرسول- صلى الله عليه وسلم- وطريقة تعامله مع الأمّة ليمهّد لنفسه الطريق

لتلقي الولاية منه، فقد سلك "ابن عربي" مسلكاً ذوقياً يجمع بين بصيرة القلب وصلاح العمل، فهو ينظر إلى معاني النص؛ أي يبحث عن المضامين الباطنية، فهو لا يقف عند ظاهر النص فقط، بل "يبحث في الألفاظ عن المضامين الباطنة الممكن احتواؤها وبتحويلات مستمرة بواسطة التأويل الذي يقيم له استراتيجية كاملة؛ هي التفكيك، فيزيح عن النص دلالاته الظاهرة... ويبحث في ثنايا كل لفظة عن دلالات إستيمولوجية وتأويلية كامنة"²⁰، كما يعمد في تأويله للأحاديث إلى حيل لفظية للوصول إلى المعاني التي يريدها.

تحدث "ابن عربي" عن أسبقية وجود محمد-صلى الله عليه وسلم- عن الخلق، وأنه أسبق الوجود عن الخلق وعن آدم، وقد حاول أن يصيغ مذهبه بصبغة إسلامية باحثاً عن أسس يعتمد عليها، لهذا نجده يلجأ إلى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف للاستشهاد عن فكرته هذه، فالاستشهاد لا يرد عنده عبثاً، بل هو آلية دالة على علاقة "ابن عربي" بالرسول - صلى الله عليه وسلم- مع حاجته في ذلك إلى مرجع يستند عليه بغية عقد علاقة تواصلية بينه وبين المتلقي تُبني على التفاعل والتأثير.

نجد ضمن أكثر الأحاديث النبوية التي اعتمد عليها فيعرض قدم ذات النبي- صلى الله عليه وسلم- الحديث القائل: "كنت نبيا وآدم بين الماء والطين"، ونلاحظ أنّ الحديث قد تكرر أكثر من مرة في كتبه، وهذا الحديث أخذ دلالات عديدة في سياقات مختلفة، فقد كرّره في "الفتوحات المكية" ثلاث مرات مستشهداً به على مرتبة الرسول- صلى الله عليه وسلم- على بني جنسه من البشر، وعلى أسبقية وجوده، وإن تأخر وجوده المادي، فإنّ حقيقته الروحية كانت حتى قبل آدم عليه السلام؛ ويقصد بالحقيقة المحمدية في فكر "ابن عربي" الروح أو النور المحمدي الأزلي المخلوق من النور الإلهي، وليس شخص الرسول المتعين في عالم الشهود، لهذا "ثبتت له السيادة والشرف على أبناء جنسه من البشر، وقال عليه السلام: (كنت نبيا وآدم بين الطين والماء

(²¹)، والملاحظ أنّ "ابن عربي" لم يذكر مصدر الحديث من الكتب الصحيحة، وهذا ما يؤكد ما ذكرناه سابقاً عن ادّعاء الصوفي أنّه يأخذ الحديث عن طريق الحلم والمكاشفة؛ أي أنّه يأخذ الحديث من الرسول مباشرة، لهذا يوظف عبارة (قال عليه السلام، أو قوله صلى الله عليه وسلم) دون ذكر راوي الحديث.

كما نجد أنّه وظّف هذا الحديث في كتابه "قصص الحكم" ليستشهد به على أنّ ما ينطبق على نبيّ ينطبق على وليّ، بما أنّ وجود محمد سابق لوجود آدم، كذلك وجود الوليّ سابق الوجود عن آدم، فمحمد كان نبياً" وغيره من الأنبياء ما كان نبياً إلاّ حين بُعث، وكذلك خاتم الأولياء كان وليّاً وآدم بين الماء والطين وغيره من الأولياء ما كان وليّاً إلاّ بعد تحصيله شرائط الولاية"²²، لكن تضاربت الآراء حول مقصد "ابن عربي" بخاتم الولاية، فهل هو عيسى عليه السلام أم هو "ابن عربي" نفسه، وهذا بسبب غموض لغة "ابن عربي" واستعصاء فهمها على المتلقي خاصة في كتابه "قصص الحكم"، هذا الغموض أدّى إلى اضطراب في فهم المقصود بخاتم الولاية، هل المقصود بها ابن عربي نفسه (خاتم الولاية المحمدية) أم المقصود بها عيسى (خاتم الولاية العامة)، وقد فهم "أبو العلاء عفيفي" مستندا في ذلك على شرح "القاشاني" و"بالي أفندي" أنّ "ابن عربي" يعني نفسه عندما يستعمل خاتم الأولياء من غير تخصّص أو قيد"²³، ونوافق في هذا أبا العلاء عفيفي، لأنّ "ابن عربي" يوجّه خطابه إلى فئة خاصة من المريدين الصوفيّين الذين لهم القدرة على فهم ما تواريه الكلمات، معتمداً على الرمز لكي لا يصطدم بمتلق معارض.

جعل الصوفيون من الرمز قناعاً يسترون به ما يرغبون كتمانهم "وهذه الرغبة طبيعية عند قوم يدّعون أنّهم خصوا دون غيرهم بمعرفة الباطن، حريتهم بل حياتهم، فإن تركنا جانباً من كلّ هذه الدوافع، فالصوفية قد اصطفوا الأسلوب الرمزي لأنّهم لم يجدوا طريقاً آخر ممكناً، يترجمون به عن رياضتهم الصوفية"²⁴، ونستحضر هنا الحديث

النبي الذي رواه الترميذي عن "أبو هريرة قال: قالوا: يا نبي الله متى وجبت لك النبوة قال: وآدم بين الروح والجسد"²⁵، ومعنى الحديث هنا أنّ نبوة محمد كتبت عند الله في اللوح المحفوظ قبل أن ينفخ الروح في جسد آدم.

قام "ابن عربي" بمحاكاة هذا الحديث، بل أكثر من ذلك فقد أحدث فيه تغييراً دلاليّاً؛ حيث غيّر على مستوى لفظ الحديث باستبداله بألفاظ تحمل دلالات صوفية" وهكذا يحوّل الأسماء من الدلالة المتعارف عليها إلى دلالة ترتبط بالتجربة الصوفية"²⁶، فقد استبدل لفظة الجسد بلفظة الطين، ونحن نعلم أنّ الطين مزيج بين التراب والماء، لكن رغم هذا لا يمكن أن ننكر أن أصل آدم من طين، فالصوفي لا يركز على المعنى الظاهر للفظ، بل ما يهيمه هو المعنى الباطن، فالكلمة عند ابن عربي تخضع لقانون الباطن والظاهر، وتضعنا دائماً في أفق لا ينتهي من الدلالات وهذا ما يجعل النصّ الصوفي عصياً على الفهم.

استند "ابن عربي" في كل فصّ من فصوصه إلى مجموعة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، فسرّد قصة كلّ نبيّ كما وردت في القرآن الكريم، لكنّه يمرر عبر كل قصة أفكاراً من مذهبه المتمثل في وحدة الوجود؛ إذ يعمد إلى تخريج المعاني التي تؤكد فكرته من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فيأخذ المعنى الظاهر لها إن كانت موافقة لرؤيته وإلاّ انصرف إلى المعنى الباطن، وبالتالي يلغي المعنى الظاهر ويركز على المعاني الباطنية للحديث عن طريق التأويل.

خاتمة: بناء على ما سبق تبدّى لنا كيف حاول الصوفيون ربط التصوّف بأصوله الإسلامية، والإثبات على أنّه التّدين بأسمى مستوياته، ردّاً على هؤلاء المتسرّعين في أحكامهم على النّصّوف، معتمدين على آيات قرآنية وأحاديث نبوية، الأمر الذي استخلصناه من كتاب "الرسالة القشيرية" للإمام القشيري، وأكّده المارد الصوفي "ابن عربي" في كتبه منتقياً الأحاديث النّبوية التي تخدم مقصده.

شكّلت مدرسة الرسول - صلى الله عليه وسلم- مصدرا لكلّ المعاني الروحية التي يؤمن بها الصوفي، كما أكدت أعمال بعض الدارسين علاقة التأثير والتأثر بين أهل الحديث والصوفية وأنّ المناهل الأولى للصوفية كانت من الحديث النبوي. يمكننا أن نخلص في خاتمة هذه الورقة البحثية إلى مجموعة من النتائج المتمثلة في الآتي:

- تناول الصوفية الحديث النبوي بمنهج التأويل والاستشهاد مبتعدين قدر الإمكان عن دلالاته الظاهرة التي تحملها اللفظة، وذلك دون إنكارها مركزين في ذلك على ما هو باطن.

- الملاحظ في معظم النظريات أو الأفكار التي يطرحها "ابن عربي" أنّها مشبّعة بأحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم-؛ إذ يتخذ من نصّ الحديث سنة أو حجة على موافقة أفكاره للإسلام وما جاء به القرآن والسنة.

- مقصد الصوفية في توظيف الحديث النبوي و"ابن عربي" بشكل خاص هو التأكيد على أنّ مصدر التشريع عند الصوفية هو القرآن والسنة، وسيرة الرسول وحياته هي مرجع الصوفي لكلّ أفكاره ونظرياته، وهذا بهدف إقناع المتلقي بتقبل خطابه دون تردّد، كما يقوم بإرضاء أهل الظاهر من الفقهاء الذين يخشى أن يتهموا بالزندقة، وبالتالي يقنعهم معتمدا أساليبهم بتقديم الحجة من القرآن والسنة النبوية.

- يعمد "ابن عربي" إلى التعقيد في أسلوبه لأغراض في نفسه، فعباراته تحتل معنيين أحدهما ظاهر وهو ما يشير به إلى ظاهر الشرع، والثاني باطن وهو ما يشير به إلى مذهبه.

- استعمال لغة الرموز والإشارات، والتحدث بلسان الباطن من أسباب غموض لغة الصوفية بوجه عام ولغة "ابن عربي" بوجه خاص.

ومن بين أهم التوصيات التي تقدّمها هذه الدراسة:

- منح عناية أكثر لدراسة الحديث النبوي الشريف، لأنه لم ينل كفايته من الدراسة مقارنة بالقرآن الكريم.
- توسيع نطاق البحث في علاقة التصوف بالحديث النبوي، وأشكال توظيفه في الخطاب الصوفي.
- قائمة المصادر والمراجع:**
- طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، (المغرب: المركز الثقافي العربي، ط1، 2002).
- إدريس مقبولة، البعد التداولي عند سبويه، (مجلة علم الفكر، ع1، 2004).
- الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، شر: عبد الله دراز، (السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية، ج2، 2014).
- الجاحظ، البيان والتبيين، مكتبة الخانجي، تح: عبد السلام هارون، (القاهرة: ج1، دط، 2013).
- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ت: محمود شاكر، (القاهرة: مكتبة الخانجي، 2005).
- عبد الحليم النجار، مذهب التفسير الإسلامي للمستشرق جولد تيسهر، (مصر: مكتبة الخانجي للنشر والتوزيع، 1955).
- محمد فهد شفقة، التصوف بين الحق والخلق، (تونس: الدار السلفية لنشر والتوزيع، ط2، 1980).
- عبد الكريم بن هوزان القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، (مصر: دار الكتب العربية الكبرى، دط، 1911).
- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، باب التواضع، الجامع الصحيح، (القاهرة: المطبعة السلفية ومكتبتها، ط1، 1400 هـ).

- عبد الحليم محمود، قضية التصوف المنقذ من الضلال، (القاهرة: دار المعارف للنشر، ط5، 2007).
- محمد أبو زيد، الصوفية في القرآن والسنة، (مصر: دار نوبار لطباعة والنشر، ط1، 2008).
- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، باب قيام النبي الليل، (مصر: المطبعة السلفية ومكتبتها، رح: 1130، ط1، 1400هـ).
- عبد السلام العمراني الخالدي رسائل النور الهادي، (دار الكتب العلمية لنشر، 2004).
- عبد القادر أحمد عطا الله، التصوف الإسلامي بين الأصالة والافتباس في عصر النابلسي، (لبنان: دار الجيل، ط1، 1978).
- محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، الميمنية، في معرفة مناولة التخلص من المقامات، (القاهرة: طبعة بولاق الثالثة، الباب 419، ج4، 1859).
- محي الدين بن عربي، فصوص الحكم، الشرح: الشيخ عبد الرزاق القاشاني، (مكتبة الفكر الجديد، أفاق لنشر والتوزيع، ط1، 2016).
- أمينة بلعلي، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، (الجزائر: دار الأمل لنشر، 2009).
- ابن عربي، الفتوحات المكية، ضبط وتصحيح: أحمد شمس الدين، (بيروت: منشورات محمد علي ببيزون، دار الكتب العلمية، ج1، 1999).
- نصر حامد أبو زيد، فلسفة التأويل، دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين بن عربي، (مؤسسة هنداوي لنشر، 2023).
- نيكلسون، الصوفية في الإسلام، تر: نور الدين شريبة، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط2، 2002).

– المبارك فوري، تحفة الأحوذى، (لبنان: دار الكتب العلمية، ج10، ط1، 1990).

الهوامش والإحالات.

¹ طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، (المغرب: المركز الثقافي العربي، ط1، 2002)، ص103.

² إدريس مقبولة، البعد التداولي عند سبويه، (مجلة علم الفكر، ع1، 2004)، ص25.

³ الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، شر: عبد الله دراز، (السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية، ج2)، ص66.

⁴ الجاحظ، البيان والتبيين، مكتبة الخانجي، تح: عبد السلام هارون، (القاهرة: ج1، دط، 2013)، ص76.

⁵ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ت: محمود شاكر، (القاهرة: مكتبة الخانجي)، ص267.

⁶ عبد الحليم النجار، مذهب التفسير الإسلامي للمستشرق جولد نيسهر، (مصر: مكتبة الخانجي للنشر والتوزيع، 1955)، ص15.

⁷ محمد فهد شفقة، التصوف بين الحق والخلق، (تونس: الدار السلفية لنشر والتوزيع، ط2، 1980)، ص41.

⁸ عبد الكريم بن هوزان القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، (مصر: دار الكتب العربية الكبرى، دط، 1911)، ص11.

⁹ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، باب التواضع، الجامع الصحيح، (القاهرة: المطبعة السلفية ومكتبتها، ط1، 1400 هـ)، ص690.

¹⁰ عبد الحليم محمود، قضية التصوف المنقذ من الضلال، (القاهرة: دار المعارف للنشر، ط5، 2007)، ص48.

¹¹ محمد أبو زيد، الصوفية في القرآن والسنة، (مصر: دار نوبار لطباعة والنشر، ط1، 2008)، ص10.

¹² أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، باب قيام النبي الليل، (مصر: المطبعة السلفية ومكتبتها، رح: 1130، ط1، 1400 هـ)، ص352.

- ¹³ عبد السلام العمراني الخالدي رسائل النور الهادي، (دار الكتب العلمية لنشر، 2004)، ص30.
- ¹⁴ عبد القادر أحمد عطا الله، التصوف الإسلامي بين الأصالة والاعتباس في عصر النابلسي، (لبنان: دار الجيل، ط1، 1978)، ص222.
- ¹⁵ محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، الميمنية، في معرفة مناولة التخلص من المقامات، (القاهرة: طبعة بولاق الثالثة، الباب 419، ج4)، ص28.
- ¹⁶ محي الدين بن عربي، فصوص الحكم، الشرح: الشيخ عبد الرزاق القاشاني، (مكتبة الفكر الجديد، أفق لنشر والتوزيع، ط1، 2016)، ص47.
- ¹⁷ آمنة بلعلي، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، (الجزائر: دار الأمل لنشر، 2009)، ص283.
- ¹⁸ ابن عربي، الفتوحات المكية، ضبط وتصحيح: أحمد شمس الدين، (بيروت: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ج1)، ص64-65.
- ¹⁹ محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، المرجع نفسه، ص64.
- ²⁰ آمنة بلعلي، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية، ص308.
- ²¹ محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، ص207.
- ²² محي الدين بن عربي، فصوص الحكم، ص64.
- ²³ نصر حامد أبو زيد، فلسفة التأويل، دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين بن عربي، (مؤسسة هنداوي لنشر، 2023)، ص212-213.
- ²⁴ نيكلسون، الصوفية في الإسلام، تر: نور الدين شريبة، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط2، 2002)، ص102.
- ²⁵ المبارك فوري، تحفة الأحوذ، (لبنان: دار الكتب العلمية، ج10، ط1، 1990)، ص56.
- ²⁶ آمنة بلعلي، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية، ص326.